المضامين الاخلاقية في شعر دعبل الخزاعي وصدى تجلياتها (دراسة تحليلية نقدية)

Mora lmplications in the poetry of dubal al-khuzai and the echo of their Manifestation: an Analytical And Criticalstudy

أ.م.د. هادي عبد الحسن لعيبي

كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية الجامعة

دكتوراه / نقد وسرد عباسي

موبايل: 07715611857

Prof. Dr.Hadi Abdul hassan Laibi

lmam Al-Kadhim Ofislamic Sciences University

d.hadi1966@qmail.com

الملخص

حينما نتكلم عن الشعر، فإننا نقف على شاطئ الحكمة وبلاغة القول وجزالة اللفظ وجميل العبارة ورقة المعنى وروعة الفكرة فضلاً على ما يضمه من علوم ومعارف وحقائق وأخيلة.

والشعر يرصد صورة الحياة بجميع جوانبها، ويساير المتغيرات ويتابعها ويدعو إلى القيم الإنسانية التي تتكامل بها شخصية الإنسان كالصدق والتعاون والحب والتسامح والعطاء والكرم فضلاً عن التآزر والأخاء ويزرع الابتسامة في فم الأسى، ويجمع الناس ويوحدهم ويلم الشتات ويثير الدروب ويضيء القلوب ويأخذ العقول باتجاه آفاق إنسانية رحبة، وقد عبر الشعراء أجمل تعبير عن القيم الأخلاقية الكبرى في الحياة، وعن الفكر الإنساني وعظمته وجسدوا ذلك في شعرهم وعمدوا إلى إعلاء تلك القيم الأخلاقية ونشرها، وفي بعض الأحايين التضحية من أجلها ونيل الخلود في قلوب الناس، ودعبل الخزاعي أحد الشعراء المبرزين الذين رسموا صوراً إبداعية للأخلاق والقيم الاجتماعية في عصر قلة الدعوة فيه إلى ذلك؛ لذا تعمد الدراسة إلى دراسة نصوصه الشعرية بعمق وتحليلها بعيداً عن السطحية لفهم السياق ودلالة الابيات ومعانيها الاخلاقية الضمنية.

الكلمات المفتاحية: (الأخلاق، القيم، حلم، ولاء وحب، دعبل الخزاعي).

المقدمة

تشكل الأخلاق رافداً مهماً يسهم على نحو كبير في بناء حضارات الأمم، ولما كان الشعر هو لسان الحال المعبر عن تلك الأخلاق؛ لذا فقد أسهم بدور مهم في تهذيب الإنسان وصقل جوانبه النفسية[١]، وقد احتفى الشعر بالأخلاق وعمد إلى بلورة القيم وتجسيدها، بغية رسمها وترصينها ثم ترسيخها في نفوس الأجيال ما يجعلها تسمو بهم بين الأمم؛ لذا نالت هذهِ القضية عناية الشعراء وتجلت في شعرهم وتمظهرت على نحو واضح وجلي منذ العصر الجاهلي، الذي لم تستطع العصبية القبيلة الحيلولة بينه وبين المنظومة القيمية الأخلاقية التي أقرها الإسلام لتحط تلك القيم ركابها في مدوناتهم الأدبية على نحو عام ونتاجاتهم الشعرية على نحو خاص.

فما المقصود بالمنظومة الأخلاقية؟ وما دورها في بناء الإنسان والمجتمع ؟ وكيف وظفها الشعراء ذلك في شعرهم ؟

تعد الأخلاق من المفاهيم الشائكة والمتداخلة في الدراسات الإنسانية كونها تشكل انعكاسات لثقافة المجتمعات وعاداتها ومعتقداتها وتقاليدها فهي قواعد سلوكية ومبادئ وقيم ممنهجة لسلوك الإنسان تتباين وتختلف من بيئة لأخرى ومن مجتمع لآخر[٢]؛ لذا فالمجتمع الإسلامي تمثله منظومة أخلاقية خاصة به، تختلف عن غيرها من المجتمعات الأخرى، وحتى المجتمعات الإسلامية ذاتها تتباين فيما بينها، وذلك ناتج من مجموعة من العوامل المؤثرة والموروثة، بيد أنها تعيش ضمن دائرة الإسلام، فتسعى لضبط نفسها بمقدار فهمها لروح الشريعة وارتباطها بها[٣]، وما من دولة أو أمة ظهرت وسادت إلا وكان للعنصر الأخلاقي فيها حضور عظيم، ولعل في رسالة خاتم المرسلين محمد (ص) خير دليل على ذلك إذ تمت فيه مكارم الأخلاق بدلالة قوله تعالى ((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [٤]، ليجسد الرسالة بقوله (ص) : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))، وعندما أعلن الرسول (ص) عن مضامين رسالته وجد في المجتمع الجاهلي موروثاً أخلاقياً وافراً، فأيده بعد أن عدل على ماهيته ليجعل من وجهته وغايته مرضاة الله، وبالتالي تسهم

(١) ينظر: علم الاجتماع، انتوني غندر، ت: فايز الصباغ، بيروت – لبنان، ط٤، (د.ت) : ٤٧.
(٢) ينظر: الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، حمدي عبد العال، دار الفا للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٥م: ٧٥.
(٣) ينظر: مفهوم الأخلاق في الشعر العربي في العصر العباسي، د. محمد تيم، جامعة أم القرى، ١٩٩٤م : ١٩.
(٤) القلم / ٤.

تلك المضامين الأخلاقية مثل الصدق والأمانة والشجاعة والكرم ... وغيرها في ترميم المجتمع وبنائه، ليكون مجتمعاً متماسكاً قوياً، لأنّ حضورها يجعل الحياة أكثر أماناً، وغيابها يؤدي إلى انتشار الشر وعدم الأمان ومن ثم أنهيار مجتمعات وسقوط حضارات(١). وفي ذلك دلالة على أفضلية الإسلام في اعتماده أُسس الأخلاق الفاضلة في بناء الإنسان والمجتمع(٢).

ولما كان للشعر أهمية في المجتمع ودور في بناء النفوس والتأثير بها فضلاً عن إظهار الجوانب الإيجابية المشرقة؛ لذا عنى الأدباء بإظهار تلك المزية والحض عليها وعلى مكارم الأخلاق والآداب على مر الزمان، وفي العصر الجاهلي إشارات كثير(٣) لهذه المضامين ما أنفك الشعراء يتغنون بها من ذلك قول الحكيم زهير بن أبي سلمى(٤):

ومهما تُكنْ عند إمرئ من خَليقَةٍ وإن خَالَها تَخفى على الناس تُعلَمِ

وإنَّ سَفَاهَ الشيخ لا حلمَ بعدَهُ وإن الفتى بعدَ السفاهةِ يَحلُمِ

ولعل مرجعية ذلك الأمر يعود إلى ما شاع من ثقافة الارتباط القبلي، فقد كانت غاية الشاعر الجاهلي هي إشاعة المثل العليا ونشرها في بيئته؛ ((لذا احتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرقها وذكر أيامها الصالحة ... لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم)) (٥).

ولما بزغ نور الإسلام أنطلق بهم إلى فضاء رحب، حيث حررهم من من القيود القبلية إلى ساحته والولاء للحق تعالى؛ وتأييد الرسول (ص) ونصرة الإسلام دون القبيلة فهذا حسان تلمع في شعره النبل والانتماء للرسالة والرسول (ص) وذكر فضل الله من ذلك قوله(٦) :

(١) ينظر: علم الأخلاق الإسلامية، د. مقداد يالجن، دار الكتب، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م : ٨.

(٢) ينظر: الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. إيمان عبد المؤمن، مكتبة الرشيد : ١٣.

(٣) ينظر: الشعر والمجتمع الجاهلي، د. حسن عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، (د.ط) : ١٣.

(٤) ينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى: ٤٤.

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الابن رشيق القيرواني، ت: محمود محي الدين، دار الجيل، ط٥، ١٩٨٥ : ٢٠/١.

(٦) الديوان / ٢٥٧.

كنّا ملوك الناس قبل محمدٍ فلما أتى الإسلام كان لنا الفضلُ

وأكرمنا الله الذي ليس غيره إله بأيّام مضت مالها شكلُ

بنصر الإله والنبي ودينه وأكرمنا باسم مضى ما له مثلُ

لتسمو النفوس وترتقي سلم التكامل الأخلاقي، وتنبذ الخلافات والتناحر ومسببات التعصب القبلي، ليغدو التفاخر والتباهي بالإسلام والإيمان بالله والرسول ونصرة الدين(١).

وفي العصر الأموي عادت العصبيات القبلية من جديد، فقد ساعد الوضع السياسي على إحيائها وبدعم من السلطة وتأييدٍ منها وتشجيع عليها، فإذا بالشعراء يمثلون لسان حال أحزابهم، فينطقون مدافعين عنهم؛ لتظهر النقائض بما تحمل في طياتها من هجاء فتعود بالمجتمع وتستحضر ما جهد الدين الإسلامي لطمسه وإلغائه من عصبية قبلية وتناحر وتباغض(٢). ويمكن أن نلحظ ما جرى بين جرير والفرزدق صراع وهجاء يمثل نموذجاً مما ذكرنا ومثاله قول الفرزدق لجرير(٣) :

فما أنت من قيس فتنبح دونها ولا من تميم في الرؤوس الأعاظم

ويمتد الزمن حتى نصل إلى العصر العباسي حيث الانفتاح الحضاري والتلاقح الثقافي والترف واللهو، إذ تتعرض المنظومة الأخلاقية إلى تحديات كبيرة ولاسيما مع ظهور ألوان من الشعر بعيدة عن مبادئ الدين الإسلامي، بيد أن لها محلاً في قصور الحكام والحانات، حيث المجون واللهو والانغماس في اللذات، فلم يعرف المجتمع الإسلامي مثل ذلك الانحراف مثلما عرفه في العصر العباسي ولاسيما في القرنين الثاني والثالث(٤)، ولعل ذلك أحد أسباب ظهور شعر الزهد الذي يدعو إلى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة(٥)، ليشكل أداة لمواجهة التيارات الشعرية التي تحمل في طياتها سمات الانحراف الأخلاقي، إذ تناول الشعراء في نتاجاتهم الجوانب الأخلاقية

(١) ينظر: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة، كتاب الشعر، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ٩١.
(٢) ينظر: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي: ٦٧.
(٣) ديوان الفرزدق : ٢٨٠/٢.
(٤) ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، (د.ت) : ١٠٠.
(٥) ينظر: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، د. عبد المنعم خفاجي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م : ٢٠٣.

وجعلوها موضوعاً لنقاشهم وبحثوا عن الفضائل، وصورا المعاني السامية والمكارم العالية، ليرصعوا بها قصائدهم الشعرية، وذلك لما في الشعر من وقع في القلوب وتأثير في النفوس، فضلاً عن المشاركة الوجدانية، والإثارة العاطفية للمتلقي، ولاسيما إذا ما علمنا أن عاطفة الإنسان تمثل تعبيراً عن موقف أخلاقي لمبدع النص، وهنا تتجلى محطة الارتباط والالتقاء بينهما أي بين النص الشعري المنتج والمنظومة الأخلاقية، فالنتاج الشعري يمثل عاملاً محفزاً للأخلاق، وينشط الباعث الأخلاقي وبالتالي ينتظم الإنسان ويُهذب سلوكياً، أي بمعنى أن الفعل الإنساني أوجد ومن خلال الشعر استعداداً نفسياً لقبول الغايات النبيلة من خلال الإرشاد الموجه للنفس، وهنا يكمن التوافق والانسجام ثم اللقاء فتكون النفس المتأثرة ممراً للسلوك.

ولما كانت الأخلاق طبائع نفسية وهيئات مصورة لسلوك الإنسان والشعر انعكاس عن بواطن النفس واحوالها؛ لذا يمكن القول إن اللقاء بينهما لقاء مبكر، سواء على نحو الإنسان والنص المنتج أو على نحو التأصيل والتجذّر، بدلالة ما يحمله الشعر الجاهلي وما يتضمنه من مضامين تربوية وأخلاقية تدعو إلى تهذيب النفس وتربيتها، وهذا ما نلحظه عند عدد محدد من شعراء العصر العباس ولعل في قول أبي العلاء ما يؤكد ذلك[1]:

إلا إنّ أخلاق الفتى كزمانه ... فمنّهن بيض في العيون وسودُ

وتأكلنا أيامنا، فكأنما ... تمرُّ بنا الساعات وهي أسودُ

وقد يخمل الأنسان في عنفوانه ... وينبه من بعد النّهى فيسودُ

فلا تحسدن يوماً على فضل نعمةٍ ... فحسبك عاراً أن يقال حسودُ

ومما لا شك أنَّ رسالة الشاعر رسالة مستقبلية وليست آنية فقط، أي أن نصوصه تمتاز بالاستمرارية في الرقي؛ لذا يستلزم منه أن يرتقى إلى مستوى التعليم الهادف، بإغناء روح الإنسان وتجربته في الحياة، عن طريق خلق فضاء من الرؤية تعتمد إسلوب الابتكار والتجديد ومحاولة تجاوز المألوف إلى كل ما هو جميل، فيغدو مؤثراً بإيقاعه الروحي في أعماق المتلقي، فيحقق المبدع التزامه

(١) ينظر: علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق : ٥٤/١.

الأخلاقي باقتحامه الاغوار النفسية، ومن هنا يحقق غايته الأخلاقية والتربوية، ليس بما أحتوى من مضامين فقط، وإنما باشتماله على الجمال، فجماليته هي من تضفى مزيداً من الأشراق والجاذبية وتجعل المتلقي متعلقاً بالنص ومتأثراً به، وكلما كان النص مشرقاً ومتوهجاً كلما أثر في نفس القاريء أكثر، وبالتالي فإن تحقيق الجمالية بحد ذاتها في الشعر يعد عملاً أخلاقياً من لدن الشاعر.

فالشاعر ومنذ القدم متعدد المهام والأعمال فهو الداعية والمصلح للمجتمع بما يضفي على المتلقي من مواعظ، وهو الثائر الفارس صاحب القضية والمبدأ والمغامر دائماً، وهذا مدعاة للإشراق في النتاج الأدبي وكلما أشرق الشعر انسجمت معه روح المتلقي وأشرقت نفسه، فالأدب كلما كان مثالياً اتصل بالعواطف النبيلة، وهنا تنعقد الصلة وتكمن ماهية العلاقة، أي أن الغائية هي الجامع المشترك بينها.

ولما كان للشعر لغته الخاصة؛ التي تمثل شخصية المبدع؛ لذا فهي تعد سبيلاً للكشف عن تجاربه والرؤى التي يحملها وآمن بها واعتقدها من هنا فإن قراءة الدواوين تذهب بناء على معرفة شخصياتهم والولوج إلى نفسياتهم، وبالتالي الاطلاع على سماتهم التي ميزتهم عن الآخرين، ولاسيما السمات النبيلة والمضامين الأخلاقية في شعرهم.

ومما لا شك فيه أن دعبل الخزاعي ترك لنا تراثاً شعرياً ضخماً ونتاجاً إبداعياً مميزاً، غدا محل عناية الباحثين ومحط أنظارهم، لما حمله من فنون الأبداع والتجديد تناولها النقاد بالدرس والتحليل فضلاً عن المباني الأخلاقية والإنسانية، وقد شدني ذلك الجانب في شعره فوجدت فيه رؤى مبدئية واضحة في الحياة والإيمان والاعتقاد والشجاعة والآباء الممزوج بالصدق والوفاء ... فضلاً عن شعره بحق أهل البيت (ع)، وسوف أعمد إلى تناول ذلك الجانب من شعره الذي يحكي مفردات رسمت الجانب الأخلاقي وما آمن به وكيف وظف ذلك في نتاجاته الإبداعية والبواعث التي دفعته مع وجود التحديات المجتمعية تارة ونظام الحكم وسياسته تارة أخرى، آملاً أن أرفد المكتبة في لبنة من ذلك ولاسيما مع الحاجة الماسة لهذه القيم في عصرنا الذي نعيشه، ولعل من اهم موضوعات المنظومة الاخلاقية في شعر دعبل الحزاعي هي :

اولا : الحب والولاء بين الدلالة والايحاء:

يعرف الحب بأنه مجموعة أحاسيس ومشاعر تنتج المودة والتجاذب والتقارب والارتياح النفسي بين الناس، والاستمتاع بالحضور مع الآخر، وهو شعور باطني يدفع الإنسان إلى التصرف عن

قصدية ولكن على نحو استجابة شفافة ورقيقة، وهذا الشعور والعاطفة متجذرة في ثقافات الشعوب على نحو عام؛ لذا يوصف بأنه من مشتركات البشرية المهمة[١]، والإنسانية تدعو إلى نقاء القلب وصفاء السريرة ورقة المشاعر والتعايش بمودة ومحبة لأنّ نسيج العلاقات بين أبناء البشر قائم على تلك المرتكزات، فهي تؤدي إلى الألفة والتآلف ومن ثم التعايش والأمان وتلك هي غاية سعادة الإنسان في مجتمعه[٢]، والحب هو المرعى والاجمة التي تنشر المودة والتآلف؛ لذا وجدناه في كثير من نتاجات الشعراء منذ القدم من ذلك قول ابن الأحنف[٣]:

متغيرين من الهوى ألوانهم ... مما تجنِ قلوبهم صفرُ

صرعى على جسر الهوى لشقائِهم ... يتصبرون وما بهم صبرُ

والظاهر أنّ مصطلح الحب يشكل موضوعاً أدبياً على نحو عام وشعرياً على نحو خاص من جانب الفكرة والجمال والإبداع، وأن كان هناك جذور له فهو في ساحة الشعراء ووجدانهم، فهم من أوائل من كتب فيه وعاشوه على نحو البعد والهجران والمأساة وهو شوق وحسرة وآلام عند أبي فراس الحمداني وبطولة وفروسية عند عنترة بن شداد وإلهام وجنون عند صاحب ليلى، كل ذلك من خلال الدفق العاطفي والانثيال في المشاعر والإحاسيس وشيئاً فشيئاً يصل الإنسان الغاية في التعلق فيمتزج الحب بالفكر والعقل فيكون يقينا عاطفياً متمثلاً بالتجلي والولاء المطلق والانتماء للآخر[٤]، وهذا ما نلمحه في شعر دعبل الخزاعي، إذ نلحظه يتغنى بذكر أهل البيت (ع) ويصدح بحبهم عاشقاً ومدافعاً متجاوزاً الحب إلى الولاء المطلق والانتماء إلى الآخر عاطفة وفكراً، وهذا ما يميز الولاء عن الحب.

فما الولاء ؟ وكيف كان دعبلاً في ولائه لأهل البيت (ع) ؟ وهل استطاع أن يؤلف منظومة قيمية وأخلاقية أثرت في الآخر المتلقي ؟

(١) ينظر: على الاجتماع، انتوني غندر، ت: فايز الصباغ، بيروت، لبنان، ط١، (د.ت) : ٤٧.
(٢) ديوان عباس بن الأحنف، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥، (د.ط) : ٢٠٧.
(٣) ينظر: الإنسان بين الجوهر والمظهر، د. أريك فروم، ت: سعد زهران، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩م : ٦٥.
(٤) محاضرات في علم الأخلاق، السيد محمد هادي الموسوي، العتبة العباسية، ط١، ٢٠١٤م: ١٤٢.

الولاء : هو اسم مصدر من والى، يوالي، مولاه، وهو يطلق على عدة معان منها : المحبة، والنصر، فضلاً عن الاتباع والقرب من الشيء[١].

وهنا يمكن أن نلحظ الفرق بينهما، فإذا كان الحب يعني الميل الروحي للآخر وتوجه القلب إليه، فإن الولاء هو الارتباط – بعد الحب – المنهجي والسلوكي ولعل ذلك يتجلى على نحو واضح في قول الفرزدق للإمام الحسين (ع) لحظة سؤاله عن الناس وكيف خلفهم، فقال للإمام (ع) : خلفتهم قلوبهم معك وسيوفهم عليك، أي حب من دون ولاء وانقطاع إليك وهذا ما يمكن أن نسميه بالولاء المستتر الذي عبر عن أحمد شوقي في مسرحية ((مجنون ليلى)) إذ يقول[٢]:

رضيـــــع ... الحسين فديت الرضيعين والمرضعة

أحب الحسين ولكنما لساني عليه وقلبي معه

حبست لساني عن مدحه حذار أمية أن تقطعه

أما دعبل الخزاعي فقد مزج الحب بالولاء والمشاعر بالمنهج والسلوك فكان نصه خالداً يسمو به بآفاق الخلود والتمايز، تمايز الموضوع واللغة والإسلوب والانتماء والمنهج ومشاعر الحب والولاء الصادقة التي ما أنفك يتلو فيها آيات العشق والغرام الممزوجة بالحسرة واللوعة لآل محمد (ع) ولاسيما لحظة استذكاره يوم الطفوف إذ يقول[٣] :

أأسبلت دمع العين بالحسرات وبتَّ تقاسي شدّة الزفرات

وتبكي على آثار آل محمدٍ فقد ضاق الصدر منك بالحسراتِ

(١) مقاييس اللغة : ٢٣٧/١.

(٢) ديوان أحمد شوقي (مسرحية مجنون ليلى) : ١٨١/١.

(٣) الديوان : ٧٦.

إلا فأبكهم حقاً وأجري عليهم عيوناً لريب الدهر منسكباتِ

ولا تنس في يوم الطفوف مصابهم بداهية من أعظم النكباتِ

سقى الله أجداثاً على طف كربلاء طريحاً لدى النهرين بالفلواتِ

تحمل الأبيات سيلاً عاطفياً ونفثات شعورية ترصد مقدار الآهات وتعكس الأسى والألم الذي يعيش المبدع لحظاته بواقعية وصدق، فالأبيات ممهورة بمشاعر الحب والولاء والصدق العاطفي والواقعي لذا كسبت الخلود والبقاء ؛لأنها نقشت في ذاكرة المتلقي قيمة أخلاقية كبرى، سافر المبدع عن طريقها عبر بوابة الزمن؛ ليرسم صورة الطف الخالدة، بمتواليات من الأفعال كانت مقدمة للأبيات ((أأسبلت ... ونبكي ... إلا فابكهم ... ولا تنسى ... سقى الله ... صلى على ...)) فضلاً عن منظومة الأفعال داخل النص، ليغدو لوحة يتموج فيها الحزن وتتحرك معها الشاعر وهي ترنوا إلى ((آثار آل محمدٍ))، بعد استفهام حائر ((أأسبلت دمع العين بالحسرات ...)) وفي ذلك كله شد عاطفي بجعل الآخر يرحل مع المبدع في أفق الحب والولاء، وهنا تتحقق القيم الأخلاقية المجتمعية بعد أن أفاد من واقعة الطف ((ولا تنسى في يوم الطفوف مصابهم ... أجداثاً على طف كربلاء ...)) إذ مزج الألم بمشاعر الحب ليعلن عن الانتماء والولاء داعياً المتلقي المشاركة في أجواء النص ومتمثلاً للآخر – الحسين (ع) في أفعاله وأعماله الحياتية. وفي قوله[1]:

سقياً لبيعة أحمدٍ ووصيّه أعني الإمام ولينا المحسودا

أعني الذي نصر النبي محمدا قبل البرية ناشئاً ووليدا

أعني الذي كشف الكروب ولم يكن في الحرب عند لقائها دعديدا

أعني الموحد قبل كلِ موحدٍ لا عابداً وثناً ولا رعديدا

(١) الديوان: ٢٣.

وهـــو الـــمقيـــم عـلـــى فـــراش مـحـمـدٍ حـتـــى وقـــاه كـــائـــداً ومكـيـدا

وهـــو الـمـقـدم عـنـد حـومـات الـوغـى مـا ليـس يـنـكـرُ طـارقـا وتـلـيـدا

يسعى دعبل بكل ما يملك من شاعرية لأن تبقى قصائده حاضرة ومتواصلة في رفد النفس الإنسانية عامة والمسلمين خاصة بعظيم الحب والحنين لأهل البيت (ع)، وهو حينما ينتج نصوصه يجعل كلماته تواجه الحقيقة ليحرك المشاعر الميتة والرازخة تحت مظلوميات التأريخ، وبالوقت الذي تؤرخ قصائده ديباجتها على المجتمع تتفتح ثمار الانتماء الممزوج بالرأفة والرحمة ك قيمة أخلاقية عليا.

فالشاعر استهل أبياته بما يناسب الواقعة والحدث المهم ((سقياً لبيعة أحمد ...) ومعنى سقياً أي إسقنا غيثا فيه نفعاً لا ضررا ولا عذابا[١]، ثم يرصن نصه بإسلوب التكرار الذي يعد من أهم الظواهر الفنية والإسلوبية التي تفصح عن مسارات دلالية وفنية تثير المتلقي وتحفزه للنظر في مقاصده ودلالته[٢]، فضلاً عن ذلك فإنه يسهم في تماسك النص ووحدته ويعكس الحالة الشعورية التي يعيشها المبدع وما يريد أن يبعث من رسائل وأفكار إلى الآخر، حتى عده قسم من النقاد ((مرآة صادقة تعكس ما يخالج الشاعر ويعتري وجدانه)) [٣]، من مشاعر وعواطف تجاه الشخصية النصية، لذا عمد دعبل إلى الإتيان بمتوالية فعلية ((أعني الذي نصر النبي محمد، أعني الذي كشف الكروب، أعني الموحد قبل كل أحد ...)) على سبيل التكرار، وصولاً إلى نقطة الإشعاع المؤثرة ((وهو المقيم على فراش محمد ... وهو المقدم عند حومات الوغى ...))؛ ليكتفي هنا بالتلميح دون التصريح، جاعلاً المتلقي يعيش حالة من التفكير والتدبير في معرفة ماهية الشخصية، فضلاً عن مساحتها الاجتماعية ومكانتها التي اكتسبتها وتفردها في صفاتها ومكانتها.

إنّ تغلغل الأساليب البلاغية في النص المنتج يكسبها سحراً ويمدها رونقاً وجمالاً، والمبدع الحق هو من يأسر الأفئدة، ويحتل الضمائر ومستعمرات الأرواح ويستولي على الأفكار ويستحوذ

(١) ينظر: تفسير الميزان : ٧٨/٦.

(٢) ينظر: قراءة إسلوبية في الشعر العربي الحديث : ٩٦.

(٣) التكرار اللفظي وأنواعه ودلالاته قديماً وحديثاً، د. صميم الياس كريم، إطروحة دكتوراه، بغداد، تربية ابن رشد، ١٩٨٨ : ١٣٨.

على القلوب، ويكون ذلك بكيفية استعمال أدوات اللغة وأساليبها المتنوعة، ولعل في البلاغة وبيانها تحقيق غايته ولاسيما الاستعارة التي تعرف إنها ((استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين معنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينه صارفة عن إرادة المعنى الأصلي))[١]. ويعمد إليها الأدباء كونها من أفضل الأساليب جمالاً لما تضفيه من رونق وتأنق على النص المنتج سواء من تأليف ألفاظها أو من خلال ابتكار وتوليد مشبه بعيد عن توقع ذهن المتلقي، وهذا لا يتأتى إلا من ذائقة أدبية تعلم وجوه الشبه على نحو دقيق بين الأشياء فضلاً عن القدرة والإمكانية في تلاحم المعاني وربطها وتوليد صورة شعرية متميزة من أجزائها، وقد أجاد دعبل في تسخير تلك الميزة في كثير من نصوصه من ذلك قوله[٢]:

إلا ما لعيني بالدموع استهلت ... ولو فقدت ماء الشؤون لقرتِ

على من بكته الأرض واسترجعت له ... رؤوس الجبال الشامخات وذلتِ

وقد أعولت تبكي السماء لفقده ... وأنجمها ناحت عليه وكلتِ

فنحن عليه اليوم أجدر بالبكا ... لمرزئةٍ عزت لدينا وجلتِ

رزينا رضي الله سبط نبينا ... فأخلفت الدنيا له وتولتِ

اكتسب النص أجواءً سردية خاصة به من خلال متوالية فعليه / أحداث بلغت (١٥) فعلاً ومن لغته التي تعي بأن النص الشعري المنتج ما هو إلا عبارة عن نسق من العلامات الدالة[٣]، وهو دليل وشاهد على مجموعة من الاختيارات التي استقاها المبدع من النظام اللغوي ... لذا نجده محملاً بأساليب بلاغية تفصح عن موهبة إبداعية فذة سخرها الشاعر لخدمة غرضه الشعري، يقيناً منه أن

(١) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨١م.

(٢) الديوان : ٧٦.

(٣) ينظر: النص والمدار – سردية الشعر وشعرية السرد، د. جمال بو طيب، عالم الكتب، أربد، الأردن، ٢٠١٣ : ٤٧.

اللغة في معياريتها لا تستوفي الكم الشعوري والزخم العاطفي فضلاً عن عظيم الواقعة والإحساس بها فلجأ إلى مجموعة من الانزياحات اللغوية فتمثل الاستعارة في نصه ((... من بكته الأرض واسترجعت له رؤوس الجبال الشامخات ... وقد أعولت تبكي السماء ... وأنجمها ناحت ... فاحلفت الدنيا ...)) للمبالغة وإظهار المعنى، وبيان عظيم الفاجعة، عن طريق التشخيص في الجمادات وبث الحياة فيها، فالأرض تبكي ورؤوس الجبال تسترجع والنجوم تنوح والسماء تنطق وقد ضجت بالعويل، سيل من الاستعارات، يمنح النص قوة تعبيرية ويهبه رونقاً ويفصح عن صورة شعرية تأخذ بذهن المتلقي وتفكيره، فيغدو في ساحة الجهد العقلي لفك رموز النص وشفراته، وبالتالي يتولد في ذهنه تطابق بين الصورة الشعرية وعظيم الفاجعة، ونتيجة التفاعل العاطفي والفكري للمتلقي مع النص تتجلى صورة من صور المنظومة القيمية والإخلاقية بين أفراد المجتمع – بعد أن رسمها المبدع – تفصح عن نصرة أهل البيت (ع) في مظلوميتهم ورفض الظلم وبالتالي فإن ولائه وحبه ما هو إلا دعوة للالتزام بالمبادئ الإسلامية السمحة وقانون الحق تعالى الذي عن طريقه يتسامى الإنسان علوا وشموخا.

ثانيا : الكرم ودلالته المجتمعية:

يعد الكرم من أظهر الصفات التي يتباهى العربُ بها منذ الجاهلية حتى اللحظة، وهو أن يهب الإنسان ما عنده ويعطي من طيب نفس وخاطر؛ لذا تميز صاحبه بالرفعة والسؤدد حتى أنهم رفعوا مكانة صاحبه في أعلى المراتب[١]، واشتهر قسم منهم بهذه الصفة حتى غدا مضرباً للأمثال وأيقونة لهذه الصفة ولعل حاتم الطائي له قدم السبق في ذلك، فقد كان مغدقاً فياضاً كريماً جواداً ذاماً للبخل حتى صار أنشودة العرب في ذلك وله قصص كثيرة حتى اشتهر عنه قوله لزوجته لحظة لومه على الجود والسخاء [٢]:

أماوية إنّ المال غادٍ ورائح ... ولا يبقى من المال إلا الأحاديث والذكر

أماوية إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً : حلَّ في مالنا نزرٌ

(١) الأخلاق والآداب الإسلامية، العتبة الحسينية، كربلاء، ط٢، ٢٠١٣م: ٨٩..

(٢) ينظر: الأدب العربي في العصر الجاهلي، شوقي ضيف، مصر، دار العارف، ط١، (د.ت) : ٢٧.

وعدَّه الإسلام من أشرف الخصال وأنبل السجايا واعز المواهب وأنماها وأخلد المآثر وأعلاها، وحض الرسول (ص) على الأنفاق والسخاء، وكأنه يريد أن يستأصل الحرص والبخل من النفوس ويقلع جذور الشح منها.

ولما كان الشعر هو الأداة التعبيرية والوسيلة التي عن طريقها يظهر المعنى على نحو صورة بيانية جميلة ومؤثرة في المتلقي وبطريقة متفردة تجعله يفاضل بين أنواع الكلام الموزون على بحورٍ مخصوصة وقوافٍ محددةٍ، لذا نجد كثيراً من المتذوقين يبحثون عن الصفات الإيجابية - في النص المنتج – التي تبني ذات الإنسان وتطور شخصيته، ولعل في ذكر الكرم والحض على فعله والعمل على نشره كفضيلة دليل على رسالة المبدع وغائيته التي ينبغي أن يتوخاها المتلقي ويتصف بها ويعمد إلى التعامل بها مع من حوله، ومما لا شك فيه أن القصائد الشعرية هي خير مضان لهذا الهدف وتلك الغائية وهذا ما نلحظه في أدبنا العربي، ودعبل الخزاعي ما أنفك يذكر الكرم قيمة عليا وفضيلة كبرى حض عليها في شعره من ذلك قوله[1]:

عللاني بسماع وطلا ... وبضيف طارق يبغي القرى

نغمات الضيف أحلى عندنا ... من ثغاء الشاء، أو ذات الوغى

ننزل الضيف إذا ما حل بنا ... حبة القلب وألواذ الحشا

جعل الشاعر من طارق الليل ((الطارق يبغي القرى))، الذي هو وصف مشتق من الطروق (وهو كل آت بالليل، وسمي بذلك لحاجته إلى دق الباب) [2]؛ لأن عادة العرب أن النازل بالحي ليلاً يطرق شيئاً من حجرٍ أو وتدٍ إشعاراً لربِّ البيت أنّ نزيلاً نزل به، ونزوله يقضي بأن يضيفوه، فهذا الضيف أو المسافر المنقطع الذي يستهدي الطريق ويبغي من الاخر حسن الاستقبال وجلال المقام وتقديم الطعام، فما طرقاته إلا نغمات طرب ((عللاني بسماع وطلا)) وكأنها عزف وتر تثلج الصدر وتسر القلب، فيها ما يسرُّ النفس، وكأنّ طرق الدار ((نغمات ...)) موسيقية هي أجمل وأقرب إلى أرواحنا من ((ثغاء الشاء ... و ... ذات الرغي))، وفي ذلك دلالة عن المفاضلة

(١) الديوان : ٢١ – ٢٢.

(٢) لسان العرب : ٢١٧/١٠.

بين استقبال الضيف وإكرامه وبين المال والأنعام وما يملك وهو لا يكتفي بأطعام الطعام وحسن الاستقبال، وإنما يشير إلى طبيعة النفس وماهية السلوك في التعامل معه ((ننزل الضيف إذا ما حل بنا ...)) فله مقام محمود ومنزل مرموق لحظة دخوله علينا، فنسكنه في ((حبة القلب وألواذ الحشا)). فالشاعر في تعامله مع هذه الصفة الأخلاقية في نصوصه الشعرية يفصح عن منظومة أخلاقية وقيم يسمو بها من جانب ويعلو من شأن الضيف من جانب آخر، وهنا يريد أن يشير إلى أن الكرم هو قيمة أخلاقية واجتماعية في الآن نفسه، وهذا ما أراده حينما جعل الضيف يمكث بين جوانحه وحبات فؤاده وبين الحشا وطيات النفس.

ومن خلال قراءة نصوص دعبل الشعرية – تعلقا بصفة الكرم – نجد أنه يعمد إلى رسم منهج أخلاقي في التعامل مع الضيف فهو لا يكتفي بانزاله منزلة الكريم وجعله في محل الترحيب، وإنما يجعل ذلك سروراً للقلب وبشرى الوجه وطلاقته وحسن الاستقبال الممزوج بالبر والقرى إذ يقول[1]:

إذا نبح الأضياف كلبي تصببتْ ... ينابيع من ماء السرور على قلبي

فالقاهمُ بالبشر والبر والقرى ... ويقدمهم نحوي يبشرني كلبي

يمكن أن نلحظ أن صوت الشاعر الخاص في البيتين يمتلك مساحة واسعة من الاستقرار والثبات وبناء الملامح الرئيسة له، ولغته تحافظ على دلالتها ولا تقف عند وظيفة سرد الحدث، وإنما تغدو لتكون موضوعاً للسرد، لتحقق ذاتيتها وتتجاوز طبيعتها، فتجعل مهمتها في النص الخرق والتجاوز والانزياح ((تصببت ... ينابيع من ماء السرور على قلبي)) فترتقي وتكسب منزلتها وقيمتها ولا تقف عند الانزياح من أجل الانزياح، وإنما تهب هذا الانزياح قيمته ومكانته في أن يرمز ومن خلال الاستعارة _التي هي نوع من المجاز اللغوي، يشابه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الآخر المختلف، الذي تود إيصاله الجملة[2]، وهي استعمال الكلمة لغير ما وضعت له، او جاءت له لوجود شبه بينهما بهدف التوسع في المعنى أو الفكرة[3] _ إلى مقدار الفرح والسرور ((ينابيع من ماء السرور)) لحظة حدث تضمن ((إذا نبح الأضياف كلبي ...)) فيغدو بلقائهم مسرور

(١) الديوان : ٣٦.

(٢) ينظر: مواد البيان، د. علي الكاتب، سورية، دار البشائر، ط١، ٢٠٠٣م: ١٢٥.

(٣) ينظر: علم البيان، د. عبد العزيز عقيق، بيروت دار النهضة، ١٩٨٥: ١٧٣/٢.

القلب عظيم البشر جزيل البرّ سخي اليد في ضيافته، وهنا يرسم دعبل للأجيال خارطة طريق للكرم والضيافة، فطروق الضيف نغمات ونزوله بشر وسرور يقتضي من الآخر أن يكون هشاً بشاً عند اللقاء، ولا يكتفي عند تلك الحدود فقط، حتى يكون عبدا وخادما من دون ذلة؛ ليسمو ويعلو في ضمائر الآخرين ونفوسهم وينقل صورة أخلاقية وقيمة عليا عن إكرام الضيف واستقباله وأطعامه وهو مسرور لذلك إذ يقول(١):

وإنـي لعبد الـضيف من غير ذلـةٍ ... ومـا فـي إلا تـلك مـن شيـمـة الـعبدِ

وسيراً على نهج الأوائل في بناء النص الشعري نجد أنّ دعبل الخزاعي في قسم من نصوصه يعمد إلى ذكر المرأة في مستهل قصائده ولاسميا التي اتخذ الكرم موضوعاً لها، فالقاريء للشعر العربي تستوقفه تلك الظاهرة فيجد حضوراً لـ ((سلمى، ماوية وسعاد، وخوله ...)) وغيرهن، وقد يتكرر الاسم في نظم الشاعر الواحد منهم، حتى يشعر المتذوق للنص كأنّ ذكر أسماء النساء لحنٌ لسمفونية أصيلة أصطفاها السحر البياني وخصها بالرفعة في عوالم الوجود والبقاء، ولاسميا بعد اكتسب الدرس النقدي لدلالتها وسر توظيفها أهمية قصوى عند الباحثين والنقاد الأوائل لمعرفة الإيحاء والرمزية من حضورها فقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه ...(٢) وهذا ما أشار إليه ابن رشيق القيرواني بقوله : ((والإشارة من غرائب الشعر وملحه وهي بلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ... وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملاً ومعناه بعيد من ظاهر لفظه ...))(٣).

وهذا ما أكده الجاحظ، الذي يرى أنّ ما يبدو من دلالة ظاهرة لمعنى من المعاني الخفية هو البيان بحد ذاته(٤)، وشاعرنا حاذقٌ ماهرٌ يعتمد في كثير من الأحايين وعن طريق ترويض اللغة إلى اللمحة الدالة والتلويح المختصر لمقاصد مخصوصة من ذلك ذكر المرأة في مقدمة قصيدته قاصداً الرمزية والإيحاء ومشاكساً ذهن المتلقي تدبيراً وتفكيراً فضلاً عن تعبيره في قسم منها عن

(١) الديوان : ٢٩.
(٢) ينظر: علم الدلالة- دراسة دلالية وتطبيقية: ١٤-١٥.
(٣) العمدة: ٢٠٩.
(٤) ينظر: البيان والتبيين: ١/٧٥-٨٣.

موقفه من الحياة أو ما تنطوي عليه نفسُه من انشراح أو صراع من ذلك قوله[١]:

بانت سليمى وأمسى حبلها انقصبا

وزودوك ولم يرنو لك الوصبا

قالت سلامة اين المال قلت لها

المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

الحمدُ فرق ما لي في الحقوق فما

أبقين ذماً، ولا أبقين لي نشبا

قلت أحبسيها ففيها متعة لهمُ

إن لم ينخ طارقٌ يبغي القرى سغبا

هذا سبيلي وهذا فاعلمي خلقي

فأرضي به، أو
فكوني بعض من غضبا

(١) الديوان : ٣٤.

إن لغة الشاعر في هذه الأبيات نابضة بالحياة وقد جاءت تعبيراً عن الحضور المتوقد للكرم في ذهنه وإظهار الوجه الداخلي له وتصدير حالة العطاء التي تأجج في ذهنه، فالأبيات فيض من مشاعر الذات وصورة لبواعثها النفسية التي رسمت أبعاد تجاربها الحياتية وسلوكها الأخلاقي ((هذا سلوكي فأعلمي خلقي ...)) وهذا ما منحها سمات إبداعية أصيلة سخرها دعبل متكئاً على معانٍ أخلاقية طالما قدسها المجتمع بوصفها قيم تحمل الأصالة وتمثل ملمحاً من ملامح الشخصية العربية.

فحواره مع العاذلة ((بانت سليمى ... وقالت سليمى ...)) يستدعي التأمل والتفكير عن مجموع المديات الذهنية والفكرية التي مكثت عنده لتتمظهر من حالة اللاشعور إلى عرض إبداعي لسجاياه وصفاته بعد سؤال العاذلة ((... أين المال ...)) وكان الجواب حاضر في الذهن (قلت لها ...) بثقة وتوبيخ ((... المال ويحك لاقي الحمد فاصطحبا ...)) وشيئاً فشيئاً تتجلى عنده الذاتية وتفصح عن نفسها ((الحمد فرق مالي في الحقوق ...)) مؤكداً الأنا أمام الآخر / العاذلة، ويقترب وريداً رويداً من النسيج القصصي، بسرد حواري مميز لا يقصده المبدع لذاته ((قالت سلامة دع هذا اللبون ...)) توسل مع استجابة ((... قلت أحبسيها ...))، وفي ذلك مساحة وفرصة لاظهار تجربته الشعرية الواقعية ذات الغاية الأخلاقية وبما أملته العاطفة عليه لحظة انتاج النص تلك العاطفة والالتزام الاجتماعي والأخلاقي التي تجعله خجلاً من الضيف لحظة نزوله، فيلاطفه استقبالاً ويحاوره حياءً، فهو بين البوح والصمت حيران إذ يقول[1]:

كيف احتيالي لبسط الضيف من خجل ... عند الطعام، فقد ضاقت به حيلي

أخاف ترداد قولي كُلْ فأحشمه ... والصمت ينزله مني على البخلِ

استهل أبياته باسلوب الاستفهام الذي هو ((طلب العلم بشيء من لم يكن معلوماً ومن قبل)) [2]، وكأنه لا يريد طرح السؤال فقط وإنما حضر لجلب انتباه المتلقي وتحريك ذهنه ((كيف احتيالي لبسط الضيف ...))، ولاسيما مع ضيق السبل والحيرة في التعامل مع الضيف لحظة استقباله وتقديمه الطعام ما بين الصمت تارة وتكرار القول بالترحيب ((أخاف ترداد قولي كُلْ ...

(١) الديوان : ٥٥.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد أبو موسى، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨: ٣٦٥.

))، فالرجل يسكن قلب المبدع بين القول ((قولي كلْ ...)) وبين السكوت ((والصمت ...)) ظنا منه أني بخيل شحيح على الآخر ((ينزله مني على البخل)).

فالكرم أخلاق قبل أن يكون هبة وعطاء، أخلاق تدعو إلى بناء الإنسان وتسمو بالمجتمع إلى التمايز والتفرد، لذا وسع دعبل من دائرته ولم يقيده بيسر الحال فقط وإنما في العسر واليسر، ولاسيما مع ترصينه النص بمجموعة من الأساليب البلاغية في دلالة على العناية بالفضائل الأخلاقية وتأكيدها ونشرها إذ يقول[١]:

لئن كنت لا تولي يداً دون أمرةٍ

فلست بمولٍ نـائلاً آخـر الدهر

فـأي إنــاءٍ لـم يفض عند ملئه

وأيُّ بخيلٍ لم يُنل ساعةُ الزفرِ

وليس الفتى المعطي على اليسر وحده

ولكنه المعطي على العسرِ واليسرِ

اشتمل النص على مجموعة من الأساليب اللغوية، استهل أبياته بأسلوب الشرط الذي هو اسلوب بلاغي يدل على تلازم أمر بأمر آخر[٢] بحيث لا يمكن أنْ تتحقق جملة جواب الشرط إلا بتحقق جملة فعل الشرط بوجود أداة مخصوصة، أي ((تعلق مضمون جملة بحصول مضمون أخرى)) [٣]، فعلق الجواب ((فلست بمولٍ نائلاً ...))، بالشرط ((لئن كنت لا تولي ...)) ثم جاء بالاستفهام في شطري البيت الثاني ((فأي إناء لم يفض ... وأي بخيل لم ينل ...))،

(١) الديوان : ٧٥.

(٢) ينظر: النحو العصري دليل ضبط قواعد اللغة العربية، سليمان فياض، مركز الأهرام للطباعة والنشر، (د.ط) : ٢٨٨.

(٣) مختصر النحو، عبد الهادي الفضلي، دار الشروق، ط٧، ١٩٨٠ : ٢١٩.

متجاوزاً به المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي على سبيل التعجب المأخوذ من التركيب اللغوي للبيت، فهو استفهم لفظاً وتعجب دلالة ومعنى من كيفية وقوع الحدث استعظاماً وتفخيماً ((... لم يفض عند ملئه ...)) ولترسيخ المعنى في ذهن المتلقي مع الميل إلى التهويل في الدلالة ((... لم ينل ساعةُ الزّفرِ ...))، ثم عمد إلى موازنة المعنى في النص، ليفصح عن مراده، بعد أن رصنّ الأبيات بأسلوب النفي ((وليس الفتى المعطي ...))، لتعتلي ثورة الكرم في جوانحه، فتعلن عن حدودها التي تتجاوز الظروف والأحوال، فهي حاضرة في العسر واليسر مع ما يلازمها من البشاشة والترحيب وسرور النفس عند حلول الضيف، وهنا يرسم دعبل منهجاً أخلاقياً وسلوكاً اجتماعياً إيجابياً يحتذى به في الكرم والبذل والعطاء.

ثالثا: الحكمة واثرها في العقل المجتمعي:

تعرف الحكمة بأنها معرفة أفضل الأمور بأحسن العلوم والمعارف، وهي ((الكلام الذي يقل لفظه ويجلُّ معناه)) (١)، تلخص للمتلقي نظرية أو تجربة حياتية عميقة أو مجموعة ملحوظات ورؤى صادرة من عقل راجح وفكر رشيد بألفاظ سهلة بعيدة عن التكلف والغموض(٢)، وهي توجه الآخر على نحو صادق ومؤثر كونها ناتجة عن خبرة وقناعة وتمتاز بانها بعيدة عن الفتور جليلة التأثير تستقطب ذوق القارئ ومن ثم تكون قادرة على التداول والانتقال والانتشار في المجتمع(٣).

ولشعر الحكمة تاريخ طويل ضارب في القدم، منذ العصر الجاهلي، إذ شكل حضوراً مميزاً في النتاجات الشعرية، متجلياً على نحو تجارب إنسانية عابرة، تسرد حكايات وملحوظات ورؤى شخصية نابعة من الفطرة تحمل في مضامينها موعظة وعبرة وضرب المثل وتمتاز بالسهولة والوضوح(٤)، بيد أنها توسعت في العصر العباسي ولاسيما مع حركة الترجمة إذ استوعب الشعراء حكم الشعوب الأخرى فتمثلوا ذلك في شعرهم وضمنوها في أبياتهم، حتى وصل الحال بأفراد قصائد أو مقطوعات كاملة من الحكمة، لينتقل فيها الشاعر من العفوية إلى النظم الموجه المعلوم

(١) ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩م : ١٩٠.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والآدب، د. مجدي وهبة، لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤ : ١٥٣.

(٣) ينظر: موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر ابي العلاء المعري، د. زهدي الخواجا، الرياض، ط٢، ١٩٩٤ : ٢٠.

(٤) ينظر: حول الحكمة في الشعر العربي، د. عبد الله باقازي، إصدارات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٩٩٣م : ٧٣.

والمعبر عن تجربة الشاعر وخبرته في الحياة مع استعمال المحسنات اللفظية والبديعية[١]، ومن ثم فتح الأبواب الواسعة لمضامين الأخلاق الحميدة وتصويرها في شعرهم، ودعبل واحد من الشعراء الذين ما انفكوا يدعون إلى مكارم الأخلاق بشعرهم فظهرت الحكمة في شعره استجابة لهواجس النفس ومكنوناتها ولاسيما الحكمة الخلقية المتعلقة بأمور كالحلم والصبر والأخوة والصداقة والقناعة، من ذلك قوله في القناعة[٢]:

إنّ القليل الذي يأتيك في دعةٍ ... هو الكثير فأعف النفس من تعب

لا قسمَ أوفرُ من قسم تنال به ... وقاية الدين والأعراض والحسب

يتسم البيتان بأحكام تشكيلهما الشعري، فلا يجد القارئ لهما أيَّ ثغرةٍ محتملة داخل هندسة التشكيل، يمكنها خلخة البناء، بل هناك تماسك وانسجام وتضافر رفيع المستوى بين المفردات والجمل وإسلوب الصياغة وتتمظهر هذه الصياغة من أساليب اللغة التي شكلت تحول بين أجزاء البيتين وعناصر بنائهما، حيث تجلى إسلوب التوكيد ((إنّ القليل ...)) بحرف مشبه بالفعل معززاً إياه بجملة فعلية مضارعة مستقبلية ((يأتيك في دعةٍ ...)) متكاملة الدلالة والبناء على أن الحديث ليس فيه تجوز ولا حذف فضلاً عن تعزيز حضور المؤكد وتمكينه في ذهن المتلقي وقلبه[٣]، حيث الراحة والهدوء والاستقرار الموجب تخفيف الجهد عن النفس ((فأعف النفس من تعب)) بأسلوب الأمر الذي هو من أساليب الإنشاء يقتضي حصول الفعل على نحو الاستعلاء والإلزام[٤] بدلالة واضحة في النص تشير إلى رغبة واضحة على امتثال الآخر بالفعل المأمور به والنهي عن ضده، مع بيان العلة من الأمر ((لا قسمَ أوفرُ ...)) بتوجيه الالتزام ((وقاية الدين والأعراض والحسب)) ليمنح الأبيات بالطلب المباشر والنصح قوة وعمق وبيان لحكمة حياتية إن القناعة بالحلال القليل راحة في الدنيا ووقاية للآخرة.

(١) ينظر: الحكمة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: ٢٢.

(٢) الديوان : ٤٢، ودعة معناها : رغد عيش وراحة وسكينة.

(٣) ينظر: البنية التركيبية للقصيدة الحديثة : د. رابح بن خوية، عالم الكتب الحديثة، أربد، الأردن، ٢٠١٣ : ٤٣.

(٤) ينظر: البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب ود. كامل حسن، وزارة التعليم العالم، ط١، ١٩٨٢م : ١٢٤؛ وأساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، يوسف عبد الله الأنصاري، جامعة أم القرى، ط١، ١٩٩٠ : ١٣.

ولا ينفك دعبل الخزاعي من ترصين أبيات الحكمة في ديوانه بأساليب بلاغية مثل الأمر والنفي والنهي ليخلق حالة من التماسك النصي والتعاقب الدلالي والإيقاعي بغية رسم صورة واقعية حقيقية للمساحة الشعورية التي تجري فيها أحداث الفعل(١)، وصولاً إلى خلق ذاكرة / حكمة شعرية وإنسانية تبدأ بالنص وتنتهي بالمتلقي دالة على تاريخ المبدع وتجربته الحياتية وثقافته المميزة من ذلك قوله في الود والعهد(٢):

ولا تعطِ ودَّكَ غيرَ الثقاتِ وصفو المودة إلا لبيبا

إذا ما لفتى كان ذا مسكةٍ فإنّ لحاليه منه طبيبا

فبعض المودةِ عند الإخاء وبعض العداوةِ كي تستنيبا

فإنَّ المحبَّ يكون البغيضَ وإنَّ البغيض يكون الحبيبا

الأبيات تدل على حكمة ناتجة عن تجربة حياتية، تفصح عن طبيعة العلاقات الإنسانية والروابط بين الأفراد، جاعلاً من الثقة جسراً للود والمودة وصفو التواصل والمحبة، طامحا لجعلها سلوكا فرديا ومنهجا مجتمعيا بين الناس، مستهلاً أبياته بأسلوب النهي ((ولا تعط ودَّك ...)) الذي يعد قسيماً لأسلوب الأمر كما أفصح عن ذلك سيبويه بقوله : ((والأمر والنهي لا يكونان إلا بالفعل)) (٣)، وهو – أي النهي – يتضمن طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على سبيل الاستعلاء والإلزام(٤)، ويتجلى على وجه واحد وهو صيغة المضارع المقرون بـ((لا)) الناهية الجازمة ((لا تفعل))، فجاءت : بنية النهي ((لا تعط ...)) من ((لا)) الناهية الجازمة مع الفاعل على نحو ضمير مستتر وجوباً والمقدر بـ((أنت)) والمفعول به الأول (ودَّك))، والثاني ((غير الثقاتِ))، مع توجيه بنية النهي إلى مخاطب مفرد غائب على مستوى البنية السطحية، بعد أن فسرها بالضمير المفرد المستتر الذي لا يحمل دلالة شخصية مقصودة بذاتها، ولا يحمل

(١) ينظر: تمظهرات القصيدة الجديدة، د. محمد صابر عبيد، أربد، الأردن، ط١، ٢٠١٣م : ٤٠.

(٢) الديوان : ٣٣.

(٣) الكتاب، لسيبويه، منشورات الأعلمي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٧م : ٨٧.

(٤) ينظر: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٧٩م : ١٥.

من الصفات غير علامة التذكير، فقد يكون الآخر صديق معين أو عقل الشاعر وفي كل الأحوال فهو ينهاه عن منح الود لغير الثقات على سبيل الإرشاد والتوجيه، ثم يأتي بأسلوب الشرط ((إذا ما لفتى ...)) معززاً إياه باسلوب الطباق ((فبعض المودة ...)) و((بعض العداوة ...))؛ لخلق إيقاع موسيقي يناسب الدلالة التي عمد إليها المبدع، ثم يأتي بأداة من الأدوات الناسخة (ان) التي تدخل على الجمل التوليدية الأسمية ((إنّ المحب ...)) و((وإنَّ البغيض ...)) لتؤدي معنى جديداً آخراً، فتتحول إلى تحويلية أسمية، وهذا يستلزم انتقاله وحركة في المبتدأ أو الخبر[١]، وإذا بالجمل ترتبط بما قبلها وتتآلف معها وتتحدد معاً حتى كأن الكلامين قد سبك أحدهما بالآخر سبكاً، أو إفرغا إفراغاً وبالتالي يكون حقق المقصد والغاية المرجو من النص الشعري.

وتستمر قافلة الحكمة في شعر دعبل الخزاعي بالسير أبداعاً فنلحظ حضوراً لموارد الحكمة بذهنية متوقدة وعقلية راسخة قد صقلتها التجارب وموارد الحياة والمحن لترفد الآخر بدرر ثمينة، فنجده يحذر من التسويف وتجنب المطل والوفاء بالوعد والعهد إذ يقول[٢]:

إياك والمطل أن تفارقه ... فإنه أفة لكل يد

إذا مطلت أمرا بحاجته ... فامض على مطيه ولا تجد

فلست تلقاه شاكراً ليد ... لقد كدها المطل آخر الابد

فالمطل من الأمور المذمومة غير المستقرة، وهو تسويف، وتأجيل لما وعد الإنسان به مرة بعد أخرى، وكما قال العرب وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل، والشاعر يوجه الكاميرا الشعرية نحو الآخر المرافق لعملية الإبداع الشعري بكنز حكائي على نحو مشهد تلخيصي من تجربة إنسانية وليست لحظة مزاجية وإنما عملية إنجاز توقفت على كمية من الخبرات والمعلومات تدخلت بها ظروف الحياة فهي ليست فكرة طارئة عاكست مزاج الشاعر وإنما هي شعلت أذكت ذاكرته، فجاءت على نحو التحذير ((إياك والمطل ...)) المؤكد بحرف ناسخ يتضمن معنى التوكيد ((... فإنه آفة لكل يد))، فلا تجد – لحظة المطل – من يلقاك بالشكر والامتنان ولاسيما

(١) ينظر: في نحو اللغة العربية وتراكيبها، د. خليل أحمد عمايرة، عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٩٨٤م : ١٠١.
(٢) الديوان : ٦٦.

إذا زامن تلك الصفة الأخلاقية، تعلقاً بسلبيتها بآفة البخل وشرورها فتغدو كأنها أم الآفات والرذائل إذ يقول[١]:

ألا إنما الإنسان غمدٌ لقلبه فلا خير في غمد إن لم يكن له نصلُ

فإن تجمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطلُ

يبدو من قراءة الأبيات أن لغة النص هي لغة توصيل لفكرة أخلاقية تتجسد على نحو حكمة تتناسب مع ملامح المبدع كونه مثقف وواعٍ لما يدور في عصره، ولم نجد لغة مكثفة أو جملاً تحمل فنون بلاغية بقدر ما تكون أقرب الى لغة التداول اليومي بين الناس.

أما في قوله[٢]:

فليست بغاث الطير مثل عتاقها وليس الأسودُ الغلب مثلَ الثعالبِ

وليس العصي الصم كالجوف خبرةً وليس البحور في الندى كالمذانبِ

فأن البيتين يشتملان على ثلاث بنى أسلوبية، إذا عمد في الأولى إلى استعمال أدوات التشبيه ((الكاف ومثل)) للايضاح والتفهيم وتبين المعنى إلى ذهن المتلقي بأبلغ بيان وأنصح كلام وذلك عن طريق المقابلة بين الأضداد، كبرهان لإثبات ما في ذهنه من حقائق، فضلاً عن نقل المعنى على نحو مفهوم وخالٍ من اللبس لحظة نظم البيتين، وكأنه أراد الانتقال بالمعنى عن طريق استعمال أداتي التشبيه ((مثل الثعالب ... كالجوف خبرة)) من الشيء نفسه الى صورة مميزة تتمثله، ثم اتخذ من التكرار للفعل ((ليس ...)) في مستهل كل شطر وسيلة حققت إيقاعاً موسيقياً داخلياً، وهذا ما ساعد على إظهار سبل البوح والإيحاء[٣]، وحمل في أثنائه دلالة نفسية فضلاً عن صورة انفعالية تحفيزية وتوجيه فرضته طبيعة سياق النص ليضفي جمالاً فنياً وثراءً دلالياً[٤]، يمتزج بمشاعر المبدع الذي أفصح عن فكرة سيطرة على خياله وشعوره فأخرجها للمتلقي.

(١) الديوان : ٥٣.

(٢) الديوان : ٤٠.

(٣) ينظر: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، د. عبد الرحمن ممدوح، مصر، الإسكندرية، ١٩٩٤م : ٩٤.

(٤) الصورة الشعرية عند أبي القاسم، مدحت سعيد، طرابلس، الدار العربية للكتب، ١٩٨٤ : ٤٧.

ولعل في بنية النفي بدلالة الفعل ((ليس)) الذي حضر على نحو أربع مرات ((فليس بغاث الطير ... وليس الأسود الغلب ... وليس العصي ... وليس البحور ...)) ما يعكس حالة القلق الوجودي الذي يعيشه فكر الشاعر واقعياً؛ لذا فهو ينفي ليدافع عن ذاته أو لعله ينفي تمرداً أو يسخر مما حوله أو لثورةٍ اعترته على مظاهر البؤس والقبح تمنياً منه في خلق عالم أفضل، فالنفي يرسم اسلوب المبدع في البوح عما يريد بين عالمه والعالم الآخر، فهو عندما يشاكس النص بالنفي يبغي الإثبات بطريقة المخالفة[١]، واللافت للنظر أن الاستهلال بالنفي بدأ بـ((ليس)) التي نشرت دلالتها على مجموع التراكيب، وجاءت لتؤكد هذا النتاج، لأن حضور الأداة على نحو مكثف مؤشر على كثافة الدلالة[٢]، ومعنى ذلك أن هناك توافق وتلازم بين نتاج النص زمنياً وغايته الدلالية ما يجعل يشعر القارئ بوجود لحظة تناغم مميزة توحدت فيها ذات المبدع مع الواقع، ولعل هذا المؤشر الذي استدعى أداة النفي ((ليس))، التي قامت بمهمتها على نحو متتابع وصولاً الى نقطة الكشف عن حالة القلق والاضطراب التي يعيشها والتشخيص المرصود الذي عبر عنه شاعرنا واقعياً فعكسه على نحو أبيات تشتمل على حكمة أخلاقية وموعظة للآخر.

رابعا: موضوعات متعددة وغائية واحدة :

لم يقتصر دعبل الخزاعي في شعره / تعلقاً بالدلالات الأخلاقية على الحب والولاء أو الكرم والسخاء والحكمة في دعوته الى منظومة أخلاقية وقيم اجتماعية، لما تحمله هذه الموضوعات من دلالات ورموز طافحة بالإيجاب والبناء الروحي والمادي، وإنما تعداه إلى موضوعات أخرى تحمل الغائية ذاتها، ومن خلال مطالعة الديوان لحظنا وجود عدد من الموضوعات التي تحمل بنى أخلاقية ومضامين تدخل السرور وتعزز التقارب بين أفراد المجتمع، ومن ثم تشكل ملمحاً يتخذه الإنسان سبيل هداية ووعي مجتمعي وبناء نفسي وروحي حين القراءة.

ومن تلك الموضوعات الدعوة الى ضرورة تقديم الهدايا وتبادلها بين الأحبة وما تتركه هذه الظاهرة من آثار إيجابية لا تخفى على لبيبٍ وعاقل، وقد ذكرت في القرآن الكريم على لسان حال ملكة سبأ في قصة سليمان ((وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)) [٣].

وكان الرسول (ص) يقبل الهدية ويثيب عليها، لعلمه بأثرها على النفس الإنسانية من شيوع

(١) ينظر: نبرات الخطابة الشعري، د. صلاح فضل، دار قباء للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٨م : ١٤.
(٢) قراءات اسلوبية في الشعر العربي الحديث، د. محمد عبد المطلب، مصر، القاهرة، ١٩٩٥ : ١٨٤.
(٣) النمل : ٣٥.

المحبة وتوثيق أواصر الود بين المسلمين ودفع العداوة والبغضاء بل وترفق قلب متلقيها، وذلك ما نراه حاضراً في قول وعبل[١]:

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا

وتودع في الضمير هوىً وردّا وتكسوهم إذا حضروا جمالا

فقد جاء الحديث على نحو الإطلاق لا التخصيص، فالعموم هو غاية الشاعر ((هدايا الناس)) فلم يحدد أو يخصص فئة بعينها وإنما الحديث لعامة الناس كون الظاهرة لها أثر على الروح والنفس وهي مشترك واحد بين الناس وأن اختلفت الأجساد والألوان، لذلك اتخذ الخطاب صفة الاجتماعية الإنسانية من عموميته في التأثير ((تولد ...)) وفي محل الالتقاء ونقطة الاشتراك ((في قلوبهم الوصالا))، لتطرق منبه الإنسان المرتبط بالفضيلة ((وتودع في الضمير ...))، والذي أودعه الله بكينونة غيبية نستشعر أثره روحياً، حيث تخلق الهدية ((... هوىً وداً))، وهي غاية الشاعر وهدفه الذي يصبوا إليه، ويمهد عن طريقه الى الجانب المادي – أي أثر الهدية المادي – ((وتكسوهم إذا حضروا)) ليس لباساً أو جلبابا وإنما ((جمالاً)) وبهاء ورونقاً، ينعكس من صفاء القلوب وجمالها ليكسي الوجوه جمالاً والأجساد لباساً.

ومن الموضوعات الأخرى التي تناولها دعبل في منظومته الاجتماعية والأخلاقية ذكره العلم، الذي يعد من أهم الأعمدة في بناء مستقبل الأمم وحضاراتها فهو يساعد على التقدم والتطور ووسيلة من رسائل القضاء على فقر المجتمع وتخلفه، فضلاً عن تمكين الإنسان من إنتاج وسائل متطورة يواكب من خلالها مسيرة الحياة، ولأهميته في حياة الإنسان أكده الحق تعالى في كتابة الكريم وفاضل به بين الناس فقلل : ((هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...))[٢]، وجاءت السنة وأحاديث أهل (ع) مؤكدةً أهميته وضرورته في الحياة فعن الرسول (ص) قال : ((أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه))[٣]فالعلم يكسب الفرد الهيبة والاحترام والتمايز يرتفع من درجة الإنسان كما أخبر القرآن والسنة النبوية الشريفة، فضلاً عن تمكين الإنسان من معرفة الآخرين والتعامل معهم من بوابة الفهم والإدراك واحترام الذات وما تحمله من مفاهيم، لذا أكده

(١) الديوان : ٩٩.
(٢) الزمر / ٩.
(٣) أمالي الصدوق : ٢٧/٤.

شاعرنا وحض عليه فنجده يقول[١]:

العلم ينهض بالخسيس الى العلا والجهل يقعد بالفتى المنسوب

وإذا الفتى نال العلومَ بفهمه وأعيق بالتشذيب والتهذيبِ

جرتْ الأمور له فبرّز سابقاً في كل محضرِ مسهدٍ ومعيبِ

يعمد المبدع في نصه الى استعمال فنون البلاغة لترصين صوره الشعرية والتأثير في المتلقي وبيان جميل المعنى ودلالته؛ لذا نلحظ أنه استعمل فن الطباق الذي هو الجمع بين شيئين أو الأمرين المتقابلين أو المتعاكسين، أو هو الجمع بين الشيء وضده[٢]، أي كلمتين متعاكستين في المعنى ومختلفتين في الدلالة مثل ((يحيي ويميت)) [٣]، وبحسب نوع الكلمة سواء أكانت حرفاً مثل ((لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)) [٤] أو غير الحرف مثل قوله تعالى ((أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)) [٥]، وهو من علوم البديع المتجذرة في التاريخ، وله مسميات أخرى بحسب تناول علماء البلاغة له ووجهة نظرهم تجاه المصطلح فقد ورد بألفاظ مثل ((التضاد، التكافؤ، المطابقة المقاسمة)) [٦]، بيد أنها تدل على معنى واحد، يأتي به المبدع ليضيف للنص جمالية من جانب اللفظ ودقة المعنى وتحسينه[٧]، وهذا ما عمد إليه شاعرنا فقدم كلمة ((العلم ...)) وأردفها بجملة فعلية على سبيل الأخبار ((ينهض بالخسيس الى العلا)) في دلالة على أهمية تحصيل العلم ومكانة صاحبة، ثم جاء الشطر الثاني من البيت وهو يحمل في مجمله طباقاً للبيت الأول ((العلم ... الجهل))، ((ينهض، يقعد، الخسيس، الفتى المنسوب))، ليشكل بنية كاملة تحمل وجهة نظر الشاعر تجاه تحصيل العلوم والمعرفة ونظمهما على نحو يؤثر في الآخر ولاسيما حينما

(١) الديوان :

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، وهلال العسكري : ٣٠٧.

(٣) المعجم الوسيط، د. إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، القاهرة، دار المعارف الدولية، ١٩٨٩، ٢٠٠٤م: ٥٥٠.

(٤) البقرة / ٢٨٦.

(٥) الأنعام / ١٢٢.

(٦) الألوان البديعية في السور الملكية، دراسة وصفية تحليلة، د. حمادة خالد محمد، (د.ت)، (د.ط) : ٢٤.

(٧) ينظر: معاني التراكيب، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ١٩٩٣م : ٢١٩/١.

يأتي بنقيضه ((الجهل ...))، وبالتالي يخلق أثراً نفسياً تولد من الصورة الانتقالية بين المعنى وضده، بعد أن استغل الطاقة الكامنة داخل ألفاظ النص فأظهرها بعد الطباق[١] ((وإذا الفتى نال العلوم بفهمه)) مثيراً وعي المتلقي ومحفزا اياه وهو يتأمل ما يحصل بعد نيل العلوم والحصول عليها ((جرت الأمور له فبرز سابقاً)) لتحصل الصدمة له – أي المتلقي – فيسعى جاهداً للبحث عن سر المعنى والدلالة فيجده حاضراً ((في كل محضرٍ مسهدٍ ومعيب))، وهنا جعل المقطوعة تعبيراً غير عادي من عالم مألوف، بعد أن عدل عن معيارية اللغة كما يقول ((كوهين)) ليبلغ أعلى مراتب التأثير والإثارة، وبالتالي هي دعوة غير مباشرة لقيم أخلاقية لبناء المجتع والرقي به ومن ثم جعلها راسخة في ذهن المبدع يهفو اليها ويسعى لتحقيقها .

وفي مواضع أخرى يدعو الى الالتزام بفضيلة مخصوصة وعدم تركها لما فيها من محاسن الأخلاق وأثر في النفوس إلا وهي (الحلم) الذي يعرف بأنه الأناءة والعقل وعكسه السفه، والتأني والأناءة ترك العجلة والاستعجال [٢]، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الضبط النفسي عن الهيجان والغضب، من هنا نخلص الى أن الحلم يعني التأني والتسامح والعفو وضبط النفس عن جمرة الشرور، والمواقف المثير للثأر والانتقام؛ لذا خصّهُ شاعرنا بالذكر لما له من قيم أخلاقية ومجتمعية تدل على كمال العقل وسعة الصدر والوعي الحكيم المؤدي الى التحمل والعفو والتسامح وهذه الصفات هي بذور لبناء الإنسان أخلاقياً وتنظيم المجتمع حياتياً فنراه يقول فيه :

وإذا حلمت فأعط حلمك كنهه مستأنيا وإذا كويت فانضج

وإذا التمست دخول أمر فالتمس من قبل مدخله سبيل المخرج

فالشاعر التمس أساليب البلاغة في التعبير عن دعوته لفضيلة الحلم فجاء بأسلوب التكرار الذي يعرف بأنه ذكر الشيء مرتين وفي اللسان ((الكر : الرجوع ... وكر عنه رجع وكر على العدو يكر)) [٣]، ومن أوائل الذين تكلموا عنه ابن قتيبة[٤]، وعرفه ابن الأثير بأنه ((دلالة اللفظ على

(١) ينظر: النقد التطبيقي والموازنات، د. محمد صادق عفيفي، القاهرة، مصر، ١٩٧٨ : ١٨١.
(٢) ينظر: الأخلاق والآداب الإسلامية، العتبة الحسينية، كربلاء، ط٢، ٢٠١٣م: ٨٦.
(٣) لسان العرب : مادة (كر، ر ر).
(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، مطبعة الحلبي، ١٣٧٣هـ : ٢٠١.

المعنى مردداً)) [١]، أذن فهو فن بلاغي عريق وسبيل بياني أصيل متجذر بين أدوات البلاغة، أسعف شاعرنا في مقام التعبير والدلالة ولبى غرضه ووفى قصده في الدعوة الأخلاقية وامتاع المتلقي وهو يردد ألفاظاً بعينها ((وإذا حلمت فأعط وإذا التمست ...)) ((وإذا كويت ...)) لعلمه أن التكرار من أفضل طرق الأقناع وأحسن الوسائل لثبات الرأي في النفس الإنسانية على مهل وهدوء من دون أن يستثير الآخر بجدلٍ أو مشادة كلامية[٢]، ثم يأتي في البيت الثاني – توثيقاً للمعنى بأسلوب رد العجز على الصدر وهو أحد المحسنات البديعية اللفظية وسماه بعض علماء البلاغة بالتصدير وهو أن يجعل المبدع أحد اللفظين المتجانسين في أول البيت والآخر في آخره[٣]، فجاء في البيت الثاني ((وإذا التمست)) في صدر البيت ثم كررهُ في عجزه ((... فالتمس)) فكان سبيلاً هادياً لفقه المعنى ودلالته المقصودة وإظهار ما خفي منه ،ولفت انتباه السامع، فضلاً عن تحقيق إيقاع موسيقى متأتي من تكرار اللفظين ((التمست والتمس)) و((دخول، فدخله)) ليحقق في ذهن المتلقي العناية والرغبة في تلك الفضيلة الأخلاقية.

هكذا يسير دعبل في شعره نحو رسم صورة أخلاقية ،ينكس تاثيرها على الفرد والمجتمع من خلال الحض على مجموعة من الصفات الحميدة أو نبذ عدد من الصفات السلبية انطلاقاً من الأنا في موضوعاته الى الآخر، سواء في ولائه وحبه أو في دعوته الى صفات التكامل الإنساني كالكرم والعلم والحلم وتبادل الهداية أو ذم قسم منها كالحسد، وبصور شعرية ذات سمات فنية عالية تحمل في مضاينها فنون القول البلاغي وبانواعه .

كُلُّ ذلك يحمل في مضامينه رسالة الى المتلقي للتمثل بالفضائل وترك الرذائل، وهذا مما لا شك فيه متأتٍ من تأزم مجتمعي وبيئي جعل الشاعر يحلم في مثالية نبعها الإسلام وتعاليمه التي ابتعد عنها كثير من الناس في عصر كثر فيه التمازج والتلاقح الثقافي والتأثير والتأثر بالآخر مما ترتب عليه انتقال صفات السلب التي تهدم بنية المجتمع ما دفع عدد من الشعراء الى محاربتها ومحاولة نشر كل ما يدعو الى الفضيلة وحسن الأخلاق كما فعل شاعرنا في ديوانه، ولعل في مقطوعته الآتية ملخص لغائيته ورسالته التي دعا اليها ، اذ اشار الى مجموعة من الأدبيات الجميلة والأخلاق الحسنة إذ يقول[٤]:

---

(١) المثل السائر : قسم ٣ : ٣.

(٢) ينظر: معاني التراكيب : ٢١٩/٢.

(٣) ينظر: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة، بيروت، لبنان، (د.ت) : ١٧٣.

(٤) الديوان : ١٠٩.

بـدأتَ بـإحسـانِ، وثنيت بـالـعُلا

وثلثت بالحسنى، وربعت بالكرمْ

ويسرتَ أمري، وأعتنيتَ بحاجتي

وأخرتَ لا عنَّى، وقدمت لي نعمْ

فـإن نـحـن كـافـأنـا فـأهـل لـودنـا

وإنْ نحنُ قصَّرنا فما الوُدُّ متهمْ

المصادر

- القرآن الكريم.
١- الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. إيمان عبد المؤمن، مكتبة الرشيد، بغداد، (د.ت) (د.ط).
٢- الآداب العربية في العصر العباسي الأول، د. عبد المنعم خفاجي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
٣- الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ط١، (د.ت).
٤- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة- كتاب الشعر، دار الكتاب اللبناني، بيروت (د.ت)، (د.ط).
٥- أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، يوسف عبد الله الأنصاري، جامعة أمر القرى، ط١، ١٩٩٠.
٦- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، د. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٧٩م.
٧- الألوان البديعية في السور المكية – دراسة وصفية تحليلية -، د. حمادة خالد محمد، جدة، (د.ت)، (د.ط).
٨- أمالي الصدوق، للشيخ الصدوق، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، قم، ط١، ١٤١٧هـ.
٩- الإنسان بين الجوهر والمظهر، د. أربك فروم، ت: سعد زهران، عالم المعرفة الكويت، (د.ت)، ١٩٨٩.
١٠- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد أبو موسى، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م.
١١- البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، ود. كامل حسن، وزارة التعليم العالي، ط١، ١٩٨٢م.
١٢- البنية التركيبية للقصيدة الحديثة، د. رابح بن خويه، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط١، ٢٠١٣م.
١٣- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، طبعة الحلبي، ١٣٧٣هـ.
١٤- تفسير الميزان، تأليف : العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٧هـ.

١٥- تمظهرات القصيدة الجديدة، د. محمد صابر عيد، أربد، الأردن، ط١، ٢٠١٣م.
١٦- الحكمة في الشعر العربي، د. عبد الله باقازي، مكة، (د.ط)، ١٩٩٣م.
١٧- ديوان أحمدي شوقي، دار صادر، بيروت.
١٨- ديوان الأحنف بن قيس، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥، ط٤، (د.ت).
١٩- ديوان الفرزق، شرحه وقدم له : على فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.
٢٠- ديوان حسان، شرحه وضبطه، د. عمر فاروق الطباع، شركة الأرقم بن الأرقم، بيروت، لبنان.
٢١- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وضبطه: عمر فاروق الطبّاع، شركة الأرقم بن الأرقم، بيروت، لبنان.
٢٢- الشعر والمجتمع الجاهلي، د. حسن عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، (د.ت)، (د.ط).
٢٣- الصورة الشعرية عند أبي القاسم، مدحت سعيد، طرابلس، الدار العربية للكتب، (د.ت)، ١٩٨٤.
٢٤- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، د. أحسان النص، دار اليقظة العربية، ط١، ١٩٦٤م.
٢٥- علم الاجتماع، انتوني غندر، ت: فايز الصباغ، بيروت، لبنان، ط٢، (د.ت).
٢٦- علم الأخلاق الإسلامية، د. مقداد الجن، دار الكتب، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٧- علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة، بيروت، لبنان، (د.ت)، (د.ط).
٢٨- علم الدلالة - دراسة دلالية وتطبيقية، د. فريد عوض بدر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيُق: محمد محي الدين، دار الجيل، ١٤٠٥هـ/١٩٨١م، ط٥.
٣٠- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ط٢.
٣١- في نحو اللغة العربية وتراكيبها، د. خليل أحمد عمايرة، عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٩٨٤م.
٣٢- قراءات اسلوبية في الشعر العربي الحديث، د. محمد عبد المطلب، مصر، القاهرة،

١٩٩٥م.
٣٣- الكافي، للشيخ الكليني، تصحيح وتحقيق: على أكبر الغفاري، ط٥، ١٣٦٣هـ.
٣٤- كتاب الصناعتين -الكتابة والشعر-، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٤١٩هـ.
٣٥- الكتاب، السيبويه، منشورات، الأعلمي، لبنان، ط٢، ١٩٦٧م.
٣٦- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣.
٣٧- لم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.
٣٨- المثل السائر، قسم٢، لابن الأثير، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٣٩- مختصر النحو، عبد الهادي الفضلي، دار الشروق، ط٧، ١٩٨٠م.
٤٠- معاني التراكيب، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٣م.
٤١- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، د. مجدي وهبة، لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
٤٢- المعجم الوسيط، د. إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩.
٤٣- المعجم الوسيط، نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية القاهرة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، ط٢، ٢٠٠٤م.
٤٤- مفهوم الأخلاق في الشعر العربي في شعر العصر العباسي، د. محمد تيم، جامعة أم القرى، ط١، ١٩٩٤.
٤٥- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
٤٦- المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، د. عبد الرحمن ممدوح، مصر، الإسكندرية، (د.ت)، ١٩٩٤.
٤٧- نبرات الخطاب الشعري، د. صلاح فضل، دار قباء للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٨م.
٤٨- النحو العصري دليل ضبط قواعد اللغة العربية، سليمان فياض، مركز الأهرام للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت).
٤٩- النص والمدار - سردية الشعر وشعرية السرد -، د. جمال بوطيبة، عالم الكتب، أربد، الأردن، ٢٠١٣.

٥٠- النقد التطبيقي والموازنات، د. محمد صادق عفيفي، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٧٨.

الدوريات:

١- التكرار اللفظي أنواعه ودلالته قديماً وحديثاً، د. صميم اليأس كريم، إطروحة دكتوراه، بغداد، تربية ابن رشد، ١٩٨٨.

٢- الحكمة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مظفر عبد الستار غانم اطروحة دكتوراه، مظفر، إشراف: د.يونس أحمد السامرائي، جامعة بغداد، الآداب، ١٩٩٢م.